الواقعية الاشتراكية وأهدافها الرئيسية في الروايات الفلسطينية

بركت حسين[1]

ملخص

تهدف هذه المقالة إلى اكتشاف التزام الواقعية الاشتراكية في الروايات العربية الفلسطينية. وقد أعان هذا الالتزام القاص الفلسطيني في إصلاح المجتمع وتوجيهه إلى المثل العليا، وسأتناول في هذه الدراسة نماذج موقف المثقفين الذين دعموا برواياتهم الثورة الفلسطينية. وأخص بالذكر الأدباء الفلسطينيين الذين جعلوا الاتجاه الواقعي الاشتراكي منهجا أساسيا لأعمالهم الأدبية ولتعبيرهم عن القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مثل الاعتقال والتضييق من عند السلطات الإسرائيلية بسبب مواقف الناس السياسية والوطنية. وهؤلاء الأدباء القلائل هم الذين جمعوا بين السياسة والأدب وهم الذين ناضلوا ضد سياسات الاضطهاد والتمييز والقهر التي تمارسها السلطة الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين.

الكلمات الدلالية: الواقعية، الاشتراكية، الرواية، الفلسطينية.

مقدمة

إن الواقعية كلمة مشتقة من وقع يقع أي حدث يحدث ومنه الواقعية، تعني هذه الكلمة بمعالجة الأشياء والأحداث والمشاكل حسب ما وقع وحدث في الواقع. فالواقعية في الحقيقة نقد الحياة والكشف عما فيها من شرور وآثام. وأما في المجال الأدبي فنرى أنه بعد الخمسينيات من القرن التاسع عشر أخذ الأدباء يختارون أساليبا متنوعة للواقعية حسب مقدارهم الفني، حتى ظهرت في هذا المجال اتجاهات مختلفة. بحيث أخذ بعض الأدباء يصفون الأشياء بطريقة الوصف المباشر، بينما طفق البعض

[1] الباحث في ماجستير في الفلسفة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة كشمير

الآخرون إلى حلول المشاكل والأزمات السياسية والاجتماعية وغيرهما. فباختلاف هذه الاتجاهات والأساليب انقسمت الواقعية إلى عدة أنواع ومن أهمها: الواقعية النقدية، والواقعية الطبيعة، والواقعية الاشتراكية. وأما الواقعية الاشتراكية فظهرت هذا النوع من الواقعية بسبب النظريات السياسية والاجتماعية الجديدة التي كانت تنادي بها الفلسفة الماركسية. فحرية الإنسان وتنظيم المجتمع وإشاعة العدالة الاجتماعية بين طبقات عامة الناس وخواصهم كانت ثمرات هذه الواقعية الاشتراكية. كما تصرح ي. غرموف" الواقعية الاشتراكية هي التبرير الفني للعلاقات الاجتماعية الجديدة، للأخلاقيات الجديدة والإنجازات الجديدة. وعلى عكس تأكيد المفكرين البرجوازيين وما شابههم من المحرفين، فلم نشأ هذا المنهج نتيجة لأوامر عليا بل نشأ بشكل طبيعي وقانوني كمطلب من مطالب الحياة نفسها، ولقد وصل إلى أفضل حالات تطوره في ظروف المجتمع السوفياتي الاشتراكي"[١].

أهداف الواقعية الاشتراكية

تدعو الواقعية الاشتراكية إلى إصلاح المجتمع وتغييره. إنها ليست كالواقعية النقدية التي تدعو إلى الإصلاح فتهتم بالرفض وتطالب بالتمرد الفردي على الواقع، بل إنها تدعو إلى حياة حرة في المجتمع يتساوى فيها الجميع أمام المصير الإنساني. إنها تبشر بالقيم الإنسانية التي ينبغي للمجتمع أن يحققها. كذلك إنها تختلف عن الواقعية النقدية التي تبالغ في وصف جوانب الشر في النفس البشرية وتكتفي بتصوير الشخصيات التي تصبح فرائس هذا الشر والغرائز الحيوانية المتفجرة بالنظام الاجتماعي الفاسد. وإنها لا تنفذ إلى وصف الشر الاجتماعي وإنما تحاول أن تعالج هدا الشر باقتراح الجوانب المشرقة التي ينبغي أن تسيطر على المجتمع. وإنها أيضا تقدم الأحداث بطريقة تجعل الخير يغلب على الشر وتؤدي الإنسانية إلى التقدم. بالرغم من

---

[١] ي. غرموف. ترجمة عدنان مدانات، الواقعية الاشتراكية المنهج والأسلوب، المكتبة التقدمية، دار ابن خلدون للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص٥٥.

ذلك فضل النقاد أحيانا الواقعية النقدية على الواقعية الاشتراكية لأنها تصور المجتمع بكل نقائصه ومحاسنه ولو بقدر ضئيل، بينما تصور الواقعية الاشتراكية بأحسن مما هو، وتصور الشخصيات الكاملة فحسب، وتبرئها من جميع النقائص والعيوب[١].

فقد يتضح لنا بعد النظرة المدققة أن الواقعية الاشتراكية كانت تنحصر عادة على وصف جوانب الشر والنظام الاجتماعي الفاسد. وقد يعتقد الدكتور عبد البديع عبد الله:" أن الواقعية الاشتراكية أدب موجه لخدمة الأهداف الاجتماعية، فهو أدب هادف لتغليب مصالح الطبقة العاملة عن طريق الإيمان بالاشتراكية، ولهذا يرفض التشاؤم واليأس. وأما المبدأ الذي تقوم عليه الواقعية الاشتراكية هو مبدأ صراع الأضداد والإيمان بأن الطبقة العاملة هي التي ستنصر في النهاية. فضلا عن ذلك نجد لها تعريفات كثيرة، ولكن كل تعريفاتها تدل على أنها منهج فكري وأسلوب فني، وهي ظاهرة اجتماعية وفكرية، لم تنشأ من الفراغ وإنما ارتبط تكوينها بالنمو العظيم لوعي الطبقة العاملة الاجتماعي"[٢].

الو اقعية الاشتراكية في الأدب الغربي

بدأت الواقعية الاشتراكية في روسيا في القرن التاسع عشر خلال الثورة الفرنسية ردا على الرومانسية والواقعية الانتقادية المتشائمة. ثم ازدهرت هذا الاتجاه في الأدب ازدهارا تاما في بداية القرن العشرين على أيدي مكسيم غوركي، ثم تبعهما أدباء آخرون من أمثال جون ريد (John Reid) وهنري باربو(Henry Bruce) حتى أصبحت أسلوبا دأب عليها الكتاب والقصاص في روسيا في التعبير عن طموحاتهم ومشاعرهم تجاه الأوضاع التي يعاني بها المجتمع، ثم انتقلت الى البلدان العالمية الأخرى. فهذا النوع من

١عباس خضر: الواقعية في الأدب، دار الجمهورية، بغداد، ١٩٦٧م، ص ٢٣.

٢د. عبد البديع عبد الله: الرواية الآن دراسة في الرواية العربية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١، ١٩٩١م، ص٥٢.

الواقعية حديث النشأة، حيث إنها ظهرت في الأدب كمصطلح أدبي جديد خالص في أواخر القرن التاسع عشر في المؤتمر الأول للأدباء السوفيتين عام ١٩٣٤م بموسكو. وقدمت في هذا المؤتمر تسميات عديدة لهذا النوع من الواقعية، وتسعى معظم هذه التسميات إلى التعبير عن المنهج الاشتراكي الجديد في الإبداعات الأدبية والفنية. وفي الأخير استقر الرأي على تسمية" الواقعية الاشتراكية". ظهرت هذا النوع من الواقعية بسبب النظريات السياسية والتعليمات الاجتماعية الجديدة التي كانت تنادي بها الفلسفة الماركسية. فحرية الإنسان وتنظيم المجتمع وإشاعة العدالة الاجتماعية بين طبقات عامة الناس وخواصهم كانت ثمرات هذه الواقعية الاشتراكية.

الو اقعية الاشتراكية في الأدب العربي

ظهرت الواقعية الاشتراكية في الأدب العربي الحديث بعد الحرب العالمية الثانية ولا سيما في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، حيث ازدهرت في هذه الفترة الحركة القومية واليسارية بتعدّد مشاكل الفرد في مواجهة الظلم والقسوة والعنف الحكومي والاجتماعي، فأخذ الكتاب يصفون الشخصيات المظلومة ويعرضون الجوانب القبيحة من الحياة ويصوّرون الواقع وما يجري فيه من مفاسد ومظالم، كما يعبرون عن الأحوال الاقتصادية والتجارية ويطرحون القضايا الإنسانية في ضوء علاقتها بالواقع الاقتصادي والسياسي ويعرضون الحياة بكل تناقضاتها. فليست الحياة عندهم حزنا مطلقا ولا فكرا دائما، بل إنما كانت مزيج بين الحزن والفرح والبؤس والسعادة. وكان محمود أمين العالم الذي كان ناقدا كبيرا وفيلسوفا مصريا شهيرا وواحدا من مؤسسي التيار اليساري في مصر يعد رائدا للواقعية الاشتراكية في الأدب العربي الحديث بإنجازاته القيمة في هذا المجال. فقد ترك في هذا المجال عدة مؤلفات مهمة ومن أهمها" الإنسان موقف" و" معارك فكرية" و" فلسفة المصادفة" و" الوعي الزائف في الفكر العربي". ومن الروائيين الكبار الذين تأثروا بهذا النوع من الواقعية أسهموا بسهم وافر في تطويرها في الأدب العربي الأديب المصري علاء الأسواني الذي كتب رواية" عمارة يعقوبيان" متأثرا بالاتجاه الواقعي الاشتراكي، وصور فيها

النفاق الاجتماعي والشذوذ الجنسي والفساد الخلقي مشيرا إلى أوضاع البؤس واليأس التي سادت المجتمع المصري بعد الحرب العالمية الثانية.

الو اقعية الاشتراكية في الأدب الفلسطيني

إن الرواية العربية قد ظهرت متأخرة في فلسطين وفي شرقي الأردن عن ظهور الرواية العربية في مصر وسوريا ولبنان بسبب الاضطرابات التي غشيت فلسطين والأردن منذ وقوعهما تحت الانتداب البريطاني، ولذلك السبب نجد الواقعية الاشتراكية بلغت في الأدب العربي الحديث أوجها بعد الحرب العالمية الثانية من حيث الشكل والفن والمضمون، ولكن الروائيون الفلسطينيون تمادوا في الواقعية الاشتراكية إلى الخمسينيات من القرن العشرين ولا سيما إلى قيام دولة إسرائيل ونكبة ١٩٤٨م، وهي الفترة التي تعرض الرواية الفلسطينية موضوع الحكم العسكري والصهيوني وتعبر عن التغيير الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي طرأ على المجتمع الفلسطيني بعد نكبة ١٩٤٨م وبعد قيام دولة إسرائيل. وقد تذهب بعض الدراسات إلى أن نكسة حزيران عام ١٩٦٧م تمثل المنعرج الحاسم بين الفترات الأولى للرواية العربية وبين فترات التجديد للواقعية الاشتراكية في الرواية العربية الفلسطينية، على نحو ذلك تذهب بعض الدراسات إلى أن التغيرات والتحولات الاجتماعية التي طرأت على الساحة الفلسطينية بعد نكبة ١٩٤٨م إلى انتهاء نكسة حزيران عام ١٩٦٧م تعتبر فترات التبلور الأولى للواقعية الاشتراكية في الرواية الفلسطينية، بحيث قد بدأ الروائيون أن يؤرخوا تلك الفترة من التاريخ الفلسطيني محاولين أن يقدموا صورة صادقة عن المجتمع الفلسطيني حتى انطلق من هذا التعبير الصادق المدرسة الواقعية الاشتراكية لمقاومة سياسة الحكومات الرسمية منذ قيام دولة إسرائيل.

ومن أهم الروائيين الذين مثلوا التيار الواقعي الاشتراكي في الأدب الفلسطيني الروائي والقاص الكبير حنا إبراهيم الذي كان عضوا في الحزب الشيوعي والذي كان ينتشر في صحيفة ذلك الحزب مقالاته السياسية والأدبية حول موضوع الحكم

العسكري والصهيوني معبرا عن التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بكل صداقة وجرأة. فقد نشر عام ١٩٥٩م أول قصته" الذكرى العاشرة" التي تعد أول نموذج للواقعية الاشتراكية في الأدب الفلسطيني. فقد صور في هذه القصة ثورة الجيل على السلطة الصهيونية من جهة، ومعاناة مواطنين العرب في إسرائيل خلال فترة حكم العسكري من جهة أخرى. إضافة إلى ذلك قدم لنا صورة واقعية عن معاناة الفلاحين الذين كانوا يشكون من الحكومة لقلة الماء وجفاف الزرع وعدم العشب المعد لرعي الأغنام. وقد مثل هذه الأحداث الواقعية خلال شخصية سعيد الذي كان أحد الراعيين والذي قد هدمت قريته عام ١٩٤٨م وقتل فيها أخواه، وهما يحاولان نقل الأثاث والنوافذ والأبواب الجديدة من منزلهم بعد ما طردوهم من القرية. فالمؤلف استعان بالواقعية الاشتراكية إلى حد بعيد وعبر خلالها عن المعاناة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تواجها الشعب العربي الفلسطيني بعد نكبة ١٩٤٨م مشيرا إلى الصراع الدائر بين السلطة الصهيونية وبين مواطن العرب الفلسطينية.

ومن الروائيين الذين مثلوا التيار الواقعي الاشتراكي في الأدب الفلسطيني الأديب الكبير إميل حبيبي الذي كان ينتمي إلى هذا التيار منذ بدايته حتى عده بعض الناقدين رائد هذا التيار الحقيقي في الأدب الفلسطيني والذي كتب في هذا المجال عدة روايات وقصص ذاع صيتها في أنحاء العالم العربي كله. وكذلك يمثل هذا التيار الواقعي الاشتراكي في الأدب الفلسطيني الكاتب محمد علي طه الذي بدأ ينشر إنتاجه الأدبي في نهاية عهد الحكم العسكري الفلسطيني. ثم بدأ ينشر إنتاجه الأدبي معتمدا على المنهج الواقعي الاشتراكي. ومن أعماله الأدبية ذات الاتجاه الواقعي الاشتراكي قصته" لكي تشرق الشمس" التي صدرت عام ١٩٦٤م، و"سلاما وتحية" التي صدرت عام ١٩٦٩م، و" إسبانيا" التي صدرت عام ١٩٦٥م. ويجدر بالملاحظة أن معظم أعمال محمد علي طه الواقعية تدور حول القضايا الاجتماعية والسياسية خلال الحكم العسكري في فلسطين، وتشير في نفس الوقت إلى معاناة الشعب الفلسطيني ولا سيما اللاجئين في خارج الوطن.

ومن الكتاب الواقعيين الأديب البارع جبرا إبراهيم جبرا الذي ولد عام ١٩٢٠م في مدينة بيت لحم بفلسطين في عائلة مسيحية، وتلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة طائفة السريان في بيت لحم. ثم في مدرسة بيت لحم الوطنية. ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره؛ انتقل مع عائلته إلى مدينة القدس، وكانت نشأته في أسرة فقيرة كحال الكثير من ا لأسر الفلسطينية قبل النكبة وبعدها. فتح جبرا عينيه على كفاح شعبه ومقاومته لاغتصاب أرضه وحقه للعيش فوقها بسلام، واختزنت ذاكرته الكثير من مشاهد البطولة والمقاومة، وعكس ذلك في مذكراته ورواياته، فقد أصدر جبرا كثيرا من الأعمال الأدبية المتميزة في الرواية والقصة القصيرة التي لاحظت إقبالا بالغا فمن بعضها صراخ في ليل طويل (١٩٤٦م)، صيادون في شارع ضيق (١٩٦٠م)، السفينة) (١٩٧٠م)، البحث عن وليد مسعود (١٩٧٨م)، الغرف الأخرى (١٩٨٦م) يوميات سراب عفان، فهذه الأعمال تعد من أهم انتاجه في أفق العالم الروائي الواقعي الفلسطيني منهجا وأسلوبا وعرضا. ومن الأدباء الفلسطينيين الذين جعلوا الاتجاه الواقعي الاشتراكي منهجا أساسيا لأعمالهم الأدبية ولتعبيرهم عن القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الكاتب الكبير مصطفى مرار الذي بدأ كتابته منذ الخمسينيات من القرن العشرين، وفي بداية الأمر كان يكتب في الصحف الحكومية وشبه الحكومية، فبالرغم من أنه عاصر الحكم العسكري ولكن لا يكتب عنه إلا في الخمسينيات والثمانيات من القرن العشرين. ومن أهم أعماله الأدبية التي تلامح الواقعية الاشتراكية" قصته" الشيوعي" التي صدرت عام ١٩٨٨م وقصته "رخصة سلاح" وما إلى ذلك. وهذا يجدر بالملاحظة هنا أن المؤلف قد صور في معظم أعماله الواقعية عن المظاهر الاجتماعية خلال الحكم العسكري في فلسطين من أمثال منع التجول والتصاريح التي كان على مواطنين العرب للتنقل من مكان إلى آخر، ومحاولة حصول المواطنين العرب على رخصة لحمل السلاح وما تطلب ذلك من إجراءات مضيئة وصعبة، وأجهزة الأمن والمخابرات وما إلى ذلك[١]. ومن الكتاب

[١] مجلة الشرق، عام ٢٠٠٠م، العدد الخاص، ص ٢٠٨

الواقعيين الآخرين الأديب الفلسطيني زكي درويش الذي عاش مدة من الزمن مع أسرته خارج الوطن الى توقيع اتفاقيات الهدنة. ومن أهم أعماله الأدبية الواقعية" الجسر والطوفان" التي صدرت عام ١٩٧٦م و" الرجل الذي قتل العالم" عام ١٩٧٨م، و" أحمد محمود والآخرون" التي صدرت عام ١٩٧٨م. فقد نالت هذه الأعمال[١] حضورا بهيجا بين القراء، لأن معظمها تدور حول الانتفاضة الفلسطينية الأولى وتفتيت الذاكرة الفلسطينية التي واجهها الفلسطينيون في داخل الوطن وخارجها.

ومن أهم كتاب الواقعية الاشتراكية في الأدب الإسرائيلي والفلسطيني الأديب البارع توفيق فياض الذي أصدر في مجال الرواية والمسرحية والقصة القصيرة أعمالا ضخمة ذات اتجاهات واقعية بحتة. فقد انتمى إلى جيل الكتاب البارعين الفلسطينيين من أمثال سميح قاسم ومحمود درويش اللذان ساهما في مجال الأدب مساهمة قيمة. وهذا يجدر بالملاحظة أن الناقدين قد انقسموا أعماله الأدبية من حيث الموضوع والفن إلى قسمين مهمين، تتعلق القسم الأول قبل نزوحه عن الوطن، ومعظم هذه الأعمال تدور حول القضايا الاجتماعية والوطنية بأسلوب رمزي وسخري، وتندرج تحت هذه الأعمال رواية" المشوهون" التي صدرت عام١٩٦٤م و" الشارع الأصفر" التي صدرت عام ١٩٦٨م، و" البهلول" التي صدرت عام ١٩٧٨م وما الى ذلك. وأما القسم الثاني فتدور حول القضايا الاجتماعية والاقتصادية والوطنية ذات اتجاهات واقعية بحتة، حتى عده بعض الناقدين الرائد الحقيقي للواقعية الاشتراكية في الأدب الفلسطيني، ومن أهم هذه الأعمال رواية" وادي الحوارث" التي صدرت عام ١٩٩٤م، و"حبيبتي مليشيا" التي صدرت عام ١٩٧٦م. ومن الكتاب الواقعيين الاشتراكيين في الأدب الفلسطيني والإسرائيلي الأديب الكبير محمد حسين نفاع الذي كان كاتبا سياسيا ورمزا من رموز الواقعية الاشتراكية في مجال السياسة الفلسطينية والإسرائيلية معا. فقد تعرض الاعتقال والتضييق من السلطات الإسرائيلية بسبب

[١] المصدر نفسه، ص ٢١٥.

مواقفه السياسية والوطنية. فكان من الأدباء القلائل الذين جمع السياسة والأدب والذين ناضلوا ضد سياسات الاضطهاد والتمييز والقهر التي تمارسها السلطة الإسرائيلية بحق الفلسطينيين. فقد أصدر في مجال الرواية والقصة والشعر أعمالا ضخمة، وجل أعماله الأدبية تزخر بالواقعية وآلام الناس ومعاناتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ومن اهم أعماله الأدبية ذات الاتجاه الواقعية" الأصيلة" التي نشرت عام ١٩٧٤م، و"ودية" التي نشرت عام ١٩٧٨م، و"ريح الشمال" التي صدرت عام١٩٧٩م، و"أنفاس الجليل" التي صدرت عام١٩٩٨م وما إلى ذلك.

خاتمة

ربما تبيّن من هذه السطور أن عديدا من الأدباء الفلسطينيين قاموا بإثراء القصة الفلسطينية من منظور الواقعية الاشتراكية، تناولت قصصهم قضايا مهمة التي تمس الشعب الفلسطيني مثل قتل وتشريد وظلم واضطهاد، وقد ساهم كثير من الأدباء البارزين أمثال جبرا إبراهيم جبر وغسان كنفاني وإميل حبيبي والآخرون في تنمية هذا الاتجاه في الأدب.

المصادر المراجع

١. إحسان عباس وآخرون: غسان كنفاني إنسانا وأديبا ومناصلا، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين، بيروت ط١, ١٩٧٤م.

٢. محمود غانم: تيار الوعي في الرواية العربية الحديثة دراسة أسلوبية، دارا الجيل والهدي، ط١، ١٩٩٣م.

٣. علي الفزاع: جبرا إبراهيم جبرا دراسة في فنه القصصي، دار المهد، عمان، ط٢، ١٩٨٥م.

٤. علي الراعي: الرواية في الوطن العربي نماذج مختارة، دار المستقبل العربي، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.

٥. حسين مروة: دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط،٣،١٩٨٦.

٦. حسني محمود: إميل حبيبي والقصة القصيرة، الوكالة العربية، الزرقاء، ١٩٨٤م.
٧. أنيس المقدسي: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٧٧م.
٨. أحمد أبو مطر: الرواية في الأدب الفلسطيني (١٩٥٠_١٩٧٥)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط١، ١٩٨٠م.
٩. فاروق وادي: ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط،١
١٠. إبراهيم خليل: في القصة والرواية الفلسطينية، دار ابن رشد، عمان، ط١, ١٩٨٤م.